أوهام عربية عن الأدب المقارن

عبد النبي اصطيف (*)

على الرغم من مرور أكثر من قرن على بدايات الممارسات العربية التطبيقية في الأدب المقارن، ومرور نحو من سبعة عقود على دخول مصطلح الأدب المقارن (عن الفرنسية أولاً) إلى العربية الحديثة، فإن العرب المعاصرين لا يزالون يعيشون أوهاماً عديدة عن هذا الحقل المعرفي الوافد إلى الثقافة العربية الحديثة.

وأول هذه الأوهام العربية يتصل بالمصطلح نفسه. فمصطلح «الأدب المقارن» في اللغة العربية الحديثة ليس غير ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي Littérature comparée، والمصطلح الانكليزي comparative literature. ولكن العرب المحدثين بسبب عدم تنبههم إلى دلالة كلمة «أدب» في الثقافتين الفرنسية والإنكليزية توهموا أن «الأدب المقارن ليس غير موضوع» يدرس مثله في ذلك مثل أي أدب قومي، وأن هناك موضوعات محددة تدخل في مضماره يكفي الباحث أن يدرسها حتى يصبح من باحثي الأدب المقارن.

ولو أن العرب المحدثين دققوا في دلالة كلمة «أدب» في الثقافة الفرنسية لتبينوا أن الكلمة كانت تعني «الدراسة الأدبية»، وأن هذا المعنى قد ظل ملازماً لها حتى العقود الأولى من القرن التاسع عشر عندما بدأ شيوع مصطلح «الأدب المقارن» في فرنسا على يد آبل-فرانسوا فيلمان إثر نجاح المساق الذي درسه في السوربون في أواخر العشرينات من القرن الماضي نجاحاً منقطع النظير حفزه على نشر مادته في أربعة أجزاء تحت عنوان «صورة الأدب الفرنسي في القرن الثامن عشر». ومعنى هذا أن مصطلح «الأدب المقارن» في الثقافة الفرنسية يعني «دراسة الأدب دراسة مقارنة» أو «الدراسة المقارنة للأدب».

وهو المعنى نفسه الذي كان يلازم كلمة «أدب» الإنكليزية في المصطلح الإنكليزي. ذلك أن الكلمة كانت تعني في الإنكليزية حتى أواخر القرن الثامن عشر «دراسة الأدب»، أي أن الإنكليز يقصدون بمصطلح «الأدب المقارن» الدراسة المقارنة للأدب، أو دراسة الأدب دراسة مقارنة. وبالتالي فإن «الأدب المقارن» في الثقافتين اللتين نقل العرب عنهما المصطلح أو، على نحو أكثر دقة، ترجماه ترجمة حرفية، ليس موضوعاً، بل هو طريقة، ومنهج، في دراسة الأدب القومي يأخذ بالحسبان صلاته الخارجية.

وثاني هذه الأوهام يتصل بمنْزلة «الأدب المقارن» في أقسام دراسة الأدب العربي والآداب القومية الأخرى. فقد تَوهَّمَ بعض العرب المحدثين أن هذا «الموضوع» أرقى بكثير من دراسة الأدب القومي، وأن العمل فيه : تدريساً وكتابة وتأليفاً وألقاباً تضاف إلى الاسم يكسب صاحبه أهمية إضافية، وأن على المرء لذلك أن يسعى بشتى السبل إلى الدخول إلى ميدانه، وإضفاء مسحة مقارنة على ما يقوم به من أبحاث، وكان من نتيجة ذلك تسرب أعداد كبيرة من الباحثين إلى هذا الاختصاص دون

(*) أستاذ بجامعة دمشق.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التأهيل المطلوب، حتى أن بعضهم لا يكاد يعرف لغة أجنبية واحدة توصع أفق منظوره، وتراه بعد ذلك يدرس ويؤلف وينظر في هذا الحقل المعرفي بثقة يحسد عليها، وقد نجح هؤلاء الباحثون في إعطاء انطباع غدا واسع الانتشار هذه الأيام هو أن الأدب المقارن «موضوع» سهل ميسر لجميع دارسي الأدب، ولا يجوز احتكاره من قبل المختصين وكأنه من موضوعات «فيزياء الذرة»؛ وهكذا كثرت التآليف النظرية والتطبيقية في الثقافة العربية الحديثة والتي يزعم أصحابها أنها تنتمي إلى الأدب المقارن، وبات عدد الكتب النظرية المؤلفة بالعربية أضعاف أعدادها في أية لغة حية بما فيها الإنكليزية والفرنسية وهو أمر دال على استسهال العرب لهذا المنعرج من منعرجات الدراسة الأدبية.

وثالث هذه الأوهام يتصل بمفهوم العرب عن هذا الحقل المعرفي الذي أخذ بسحر كلمة «مقارن» وغدا أسيراً لما يفهمه العرب عادة من «المقارنة» التي تعني الوقوف على المشابهات والفروق بين أثرين أدبيين ينتميان إلى أدبين قوميين مختلفين. وهكذا وجدنا المتسربين إلى هذا الحقل المعرفي أو الموضوع يعانون من عقدة المشابهة يتلمسونها بين ما يدرسونه من نصوص الأدب العربي أو سواه وبين النصوص الأخرى التي تتيسر لهم في الغالب عن طريق الترجمة، وعندما يتوافر لهم قدر كاف من وجوه المشابهة يسارعون ألى الحكم بوجود صلة تأثر وتأثير بين النصين، ويبادرون إلى تمحل معززاتها الخارجية، وإطلاق الأحكام على قوة الآداب والثقافات في التاريخ الإنساني، وتفسير ما يقعون عليه من صلات تفسيرات تبعث على الابتسام أحياناً، والأسى أحياناً كثيرة.

ورابع هذه الأوهام يتصل بالوهم السابق، وفحواه أن ثمة طرفين في أية علاقة مقارنية يدرسونها؛ طرفاً هو المؤثر والقوي والفاعل والمانح والخير وذو اليد العليا، وطرفاً آخر هو المتأثر والضعيف والمنفعل والآخر والمحتاج وصاحب اليد الدنيا. وأن من الأفضل لأي أدب قومي أن يكون من الطرف الأول. وهكذا مضى الباحثون العرب إلى بيان فضل الأدب العربي على الآداب الأخرى الشرقية والغربية، ورأوا في ذلك تعويضاً مسوغاً عما نحن فيه من ضعف وتبعية، ثم رأوا وانطلاقاً من عقدة الخواجا أن الخوض في صلة الأدب العربي الحديث بالآداب الغربية المتقدمة بات ضرورياً لبيان أن الأدب العربي الحديث ماض قدماً في الارتقاء بنفسه على معارج الحداثة وما بعد الحداثة.

وخامس هذه الأوهام ناجم عن لوازم عقدة المقارنة وما يرتبط بها من علاقة التأثر والتأثير، وهو التمسك المسرف بذيول ما بات يعرف بالمدرسة الفرنسية القديمة، والانصراف عما جد من تطورات في فرنسا نفسها وفي خارجها إلى درجة إهمال المدارس الأخرى التي غدت منذ نهاية الحرب الكونية الثانية تنافس التوجه الفرنسي كالمدرسة الأمريكية، والمدرسة السلافية، والمدرسة الاستقبالية، والمدرسة ما بعد الاستعمارية، وغيرها، والالتفات إليها على نحو فردي وبعد ترك مسافة أمان أقلها عقدان بين ما يجري في الوطن العربي وبين ما يجري في التقاليد الأدبية والنقدية الأخرى.

وسادس هذه الأوهام هو التمسك بتلابيب «الآخر» والاهتداء به في الدراسات النظرية والتطبيقية المقارنة على نحو كامل ما دام العرب قد اهتدوا به في بداية معرفتهم لهذا الموضوع، وعدم الالتفات إلى تجربة الأدب العربي الطويلة والغنية والمتنوعة والفريدة في التفاعل مع الآداب الأخرى ومحاولة الصدور عنها في تطوير منظور عربي ينطلق من طبيعة الأدب العربي وطبيعة صلاته بهذه الآداب. وغدت بذلك الممارسة العربية المقارنية محاكاة، بل تطبيقاً آلياً وتقفياً مستمراً لجهود «الآخر» في الميادين النظرية والتطبيقية في الأدب المقارن، مما حرم هذه الحقل المعرفي من حصيلة تجربة الأدب العربي الفريدة والتي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمكن لها أن تغني التفكير النظري والممارسات التطبيقية في الأدب المقارن في العالم كله، ولكن من يقوم بهذه المهمة إن لم يقم بها الباحثون العرب أنفسهم من المؤهلين حقًا وصدقًا في هذا الحقل المعرفي المهم.

وثمة أوهام أخرى تطبع الكثير من أعمال المتطفلين على هذا الحقل المعرفي المهم من العرب المحدثين، وتحول بين العرب والنهوض بمستوى ممارساتهم النظرية والتطبيقية فيه، والانتماء حقًا إلى عصرهم بهذه الممارسات، وقد تم الاكتفاء بأهمها لإلحاحها ووضوحها في هذه الممارسات.

ومعنى هذا أن على العرب أن يتخلوا عن هذه الأوهام وينطلقوا في انشغالهم بالأدب المقارن من أسس رئيسية مستلهمة من روح نظريات الأدب المقارن والتجارب القومية المختلفة في هذا الحقل المعرفي.

أما أبرز هذه الأسس فهو أن الأدب المقارن «دراسة مقارنة للأدب»، أي أنه طريقة مميزة في الدراسة الأدبية، ومنهج محدد في تدبر النصوص الأدبية، وهو بهذا المعنى أقرب إلى النقد منه إلى البحث. ومعنى هذا أن المقارن المتخصص ناقد أدبي بالدرجة الأولى يواجه نصًا أدبيًا يسعى إلى دراسته دراسة شاملة تستوعب جميع وجوهه ومختلف مستوياته، بما في ذلك حضور «الآخر» فيه. والمقارن العربي إذ يمضي في توجهه هذا، فإنه إنما يجاري التحول الخطير في الدراسات المقارنة المعاصرة والذي تحدث عنه أبرز منظري الأدب المقارن في العالم من أمثال إيف شيفريل وادوارد سعيد وغيرهما. يكتب ادوارد سعيد في كتابه «**الثقافة والإمبريالية**» عن هذا التحول في الأدب المقارن من أسلوب البحث إلى أسلوب النقد فيقول:

«كان التراث الرئيسي لدراسات الأدب المقارن في أوروبا والولايات المتحدة، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل وحتى أوائل الـ 1970، خاضعًا بقوة لأسلوب من البحث يكاد يكون قد اختفى الآن. والسمة الرئيسية لهذا الأسلوب القديم هي أنه كان بالدرجة الأولى بحثًا، ولم يكن ما أصبحنا نسميه نقدًا»[1].

وثانيها أن «الأدب المقارن» ضرورة تمليها طبيعة الأدب العربي نفسه، أي أنه مقتضى منهجي، وليس خيارًا أمام المقارن العربي. وحسب المرء أن يشير هنا إلى المعالم الكبرى في تاريخ هذه الأدب حتى تبين أنه كان على تواصل مستمر مع الآداب الأخرى. ففي العصر الجاهلي تفاعل هذا الأدب مع الأدب الفارسي، والأدب اليوناني، والأدب اللاتيني، والأدب السرياني، والأدب الأمهري، وغيرها من الآداب المعاصرة له؛ وفي العصور التالية ازداد هذا التفاعل وتعمق واتسعت آفاقه ليشمل مختلف الآداب الشرقية (الهندي، وآداب آسيا الوسطى)، والغربية ولا سيما آداب اللهجات العامية اللاتينية في صقلية، وإسبانية، وجنوبي فرنسة، وغيرها. وقد استمر هذا التفاعل مع الآداب المختلفة شرقيّها وغربيها حتى العصر الحاضر. فقد شهد القرنان الأخيران مواجهة شاملة مع الغرب الأوروبي وكانت ولادة الأدب العربي الحديث ونشأته ونموه وتطوره وإسهامه في الأدب العالمي في إطار هذه المواجهة المستمرة.

وثالثتها متصل بالأساس الثاني وهو ضرورة الإفادة من تجربة الأدب العربي العريقة والغنية والمستمرة والممتدة الآفاق في تطوير طريقه لدراسة الأدب انعربي دراسة مقارنة تغني الأدب المقارن في العالم وتعمقها، بدل البقاء عالة على

(1) أدوارد و. سعيد، **الثقافة والإمبريالية**، نقله إلى العربية كمال أبو ديب (دار الآداب بيروت، 1996)، ص ص (111-112).

«الآخرين» ومحاكاتهم وتقليدهم باستمرار. إن على المقارنين العرب أن يأخذوا بزِمام المبادرة في الدراسات المقارنة ويسهموا في تطوير مناهج الدرس المقارن استنادًا إلى تجربة أدبهم ذي التاريخ الطويل، ويقدموا للعالم بعض ما يدينون به للآخر، وإذا كنا بحاجة إلى قاعدة مادية متطورة لمعاودة دورنا الحضاري في مختلف المعارف والعلوم المعاصرة، فإن معاودة هذا الدور في الأدب المقارن أمر يدخل في دائرة الممكن.

ورابعها هو أن الدراسة المقارنة للأدب منهج دينامي مفتوح للتطور والتغيير المستمر لأنه مرتبط أساسًا بالنصوص الأدبية التي لا تفتأ تتطور في مختلف الاتجاهات وعلى جميع المستويات، ومعنى هذا أن أي جمود في المنظور المقارن سيكون عقب أخيل بالنسبة للمسعى المقارني العربي. وغني عن البيان الإشارة إلى أن دائرة النصوص الأدبية، التي تحدد المنهج المقارن الأمثل لمقاربَتِهَا، دائرة واسعة تشمل نصوص الأدب العربي مثلما تشمل نصوص الآداب الأخرى، وتشمل النصوص الأدبية الموجودة بالفعل، مثلما تشمل النصوص الأدبية الممكنة بالقوة. وبهذا يتحول المنهج المقارن في الدراسة الأدبية إلى منهج طليعي يستشرف آفاق التطور الأدبي الممكنة وينبه عليها ويشير إلى سبلها، ولا يكتفي بمجرد موقع التابع في صلته بالأدب. إنه في الواقع يرتقي بنفسه إلى مرتبة المعارف النظرية الأخرى العلمية البحتة، والعلمية التطبيقية، والإنسانية عامة. إنه ينطلق من الأدب ونصوصه ولكن ليقوده لاحقًا في طرق تطويره الممكنة. فيكون بذلك محكومًا بالطموح الإنساني نحو الأفضل، محرك النشاط الإنساني والمسعى الإنساني إلى التسامي بالإنسان وما ينتجه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com